● النتائج :

المسألة - كما تقدَّم - ليست مقصورة على مجرد قضية من قضايا تاريخ الأدب ونقده . بل الهدف منها أبعد من ذلك بكثير ، وهى مسألة المقصود منها إصابة الإسلام فى مقتل .

لأنه إذا صحَّ - جدلاً - أن رجال القرون الثلاثة الأولى ، ومَن جاء بعدهم ، قد زوَّروا الشعر الجاهلى . فمعنى ذلك أنهم لم يكونوا أمناء فى كل ما قالوه ، وفى كل ما رووه ودوَّنوه فى مؤلفاتهم التى تفوق الحصر ، وهذا يفتح أبواب الريب على مصاريعها فيما جمعه أولئك الأبرار من علوم وفنون : فتفسيرهم لكتاب اللّه يعتريه الشك . ؟! وجمعهم لحديث رسُوله تحيط به الظنون . وما دوَّنوه من كتب السيرة والتاريخ والأصول والعقائد والفقه واللغة ، وكل ذلك يصبح موضع شك وارتياب ، لأن ما يصدر عن غير الأمين لا ثقة فيه وهذا هو المقصود للحاقدين على الإسلام من المستشرقين وعملائهم منا ، وإن صلوا وصاموا وزعمرا أنهم مسلمون .

* *

● دحض هذه المفتريات :

هذه الدعوى - كنظيراتها مما روَّجه المستشرقون عن الإسلام - هى الزور والبهتان بعينه ..

فحين صدر كتاب طه حسين عام ١٩٢٦ الذى ضمَّنه هذه التهم ، وثارت ثائرة المسلمين فى مصر - حكومة وشعباً - وفى غير مصر ، وانتهى الأمر بأن صدور الكتاب ، فى ذلك الحين تصدى فريق من العلماء الغيورين على الإسلام مثل الشيخ محمد الخضر حسين شيخ الأزهر الأسبق ، والأستاذ أحمد محمد الغمراوى وفريد وجدى ، وغيرهم ، تصدوا علمياً لمزاعم « مرجليوث » وطه حسين وفنَّدوا شبهاتهم واحدة إثر أخرى . وكشفوا عن الزيف والباطل الذى عرضه طه حسين فى كتابه المذكور . وأثبتوا بأقطع الأدلة أن طه حسين كان

مغالطاً زائغاً عن الحق ، يعتمد الإساءة للإسلام وسيرة رجاله ، وكان المرحوم مصطفى صادق الرافعى ممن تصدى لأباطيل طه حسين و « مرجليوث » فى كتابه القيم « تحت راية القرآن » ، وما تزال مؤلفات هؤلاء الأغيار فى الرد على هذه الأباطيل متداولة فى الأسواق . وكلهم قد نزحوا عن قوس واحدة فى تسفيه ما ذهب إليه طه حسين وأساتذته .

وممن أسهم فى الرد المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « مطلع النور » تحت عنوان : « تزوير الشعر الجاهلى مستحيل » ، ونهج فى رده منهجاً نفسياً توصل من خلاله أن تزوير أدب أمة واحد من المستحيلات التى يرفضها العقل .

فشعر امرئ القيس - مثلاً - موزَّع على مراحل عمره ، ولشعر كل مرحلة منها خصائص فريدة . فمَن ذا - يا ترى - ذلك العبقرى الذى يحسن أن يقول شعراً متفاوت السمات ثم يدَّعى أنه شعر امرئ القيس ؟! وهكذا يقال فى جميع الشعراء الجاهليين .

* *

● عروبة القرآن يقين :

والقرآن الكريم نزل بلسان عربى مبين ، وهو ليس فى حاجة إلى أن تتوقف عروبته على شعر جاهلى أو غير جاهلى . هذا خطأ شنيع وقع فيه طه حسين ، أو افتراء وجهل ليس لهما مثيل . ومفسرو القرآن ، وشارحو حديث رسول الله ﷺ حين يستشهدون بشئ من الشعر على تفسير آية أو حديث أو كلمة فى آية أو حديث لم يكن هدفهم التدليل على عروبة القرآن أو الحديث . بل كان هدفهم الشرح والإيضاح أو أن العرب كانوا يقولون ذلك . وهذا على سبيل الاستئناس لا على سبيل الوجوب .

وما استعمله المفسِّرون والمحدِّثون من الشعر الجاهلى قليل جداً إذا قورن بما للشعراء الجاهليين من تراث شعرى . فالإمام الزمخشرى فى تفسيره « الكشاف »

لم يتجاوز ألف بيت من الشعر ، مع أن الزمخشرى كان معروفاً بأنه أكثر المفسرين استشهاداً بالشعر ، ومما يدحض دعوى طه حسين ومستشرقيه أمور :

أولا : أن الشعر الجاهلى واستعمالاته للغة - إفراداً وتركيباً - أوفر بكثير مما جاء فى القرآن الكريم .

ثانياً : أن فى القرآن الكريم ألفاظاً وتراكيب ليس لها نظير فى الشعر الجاهلى .

ثالثاً : أن استشهاد المفسِّرين والمحدِّثين لم يكن مقصوراً على الشعر الجاهلى بل استشهدوا - كذلك - بشعر الإسلاميين فى عهدى الأمويين والعباسيين .

رابعاً : أن علماء اللغة والبلاغة - كما استشهد المفسِّرون والمحدِّثون بالشعر الجاهلى فى التفسير وشرح الحديث - استشهد علماء اللغة والبلاغة وغيرهم على القواعد اللغوية بالآيات القرآنية ، وبالأحاديث النبوية .

خامساً : أن جامعى اللغة ومستنبطى أصولها وقواعدها كانوا يتحرون الدقة فى الرواية . فلم يأخذوا اللغة عن كل مَن هبَّ ودبَّ ، بل كانوا يقبلون روايات العرب الأقحاح ، والبدو الخلّص الذين لم تلن ألسنتهم رخاوة الحضارة . ولم تفسد لهجاتهم مخالطة الشعوب غير العربية .

سادساً : أن جمع اللغة - وبخاصة الشعر - بدأ مبكراً قبل تصدى العلماء لتفسير كتاب الله ، وجمع سُنَّة رسوله . ونشير هنا - مجرد إشارة - إلى كتاب : « جمهرة أشعار العرب » لأبى زيد القرشى ، وكان من رجال القرن الثانى الهجرى فى بعض الروايات ، وكتاب « طبقات فحول الشعراء » لابن سلام الجمحى المتوفى فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، وهذان الكتابان من أسبق الكتب فى جمع أشعار العرب الجاهليين ومَن جاء بعدهم فى صدر الإسلام . فهل المسبب يتقدم على السبب ؟ طه حسين يقول إن سبب تزوير الشعر الجاهلى هو حاجة المفسرين والمحدِّثين لإثبات عروبة القرآن والحديث ، ووجود الشعر الجاهلى مزوراً هو المسبب ، وها نحن قد رأينا وجود الشعر الجاهلى قبل بدء تدوين كتب التفسير والحديث . وعلى هذا يلزم منطق طه حسين المعوج أن

المسبب يتقدم على السبب ، وهذا باطل فى حكم العقل والعلم والواقع والنقل ؟!

الأب - مثلاً - سبب فى وجود أبنائه . وأبناؤه مسبب عنه . فهل يصح فى العقول أن يولد الأبناء قبل ولادة أبيهم ويكونوا أكبر منه عمراً وأسبق وجوداً فى الحياة ؟!

نحن نفهم أن يفترى الحاقدون من المستشرقين على الإسلام ما شاءوا ، ولكن لا نفهم أن يجاريهم فى هذا أناس يقال إنهم مسلمون . وصدق الشاعر الذى قال :

والليالـــى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيب ؟!

* * *

# لماذا لم يُعيِّن الرسول خليفة له ؟

معروف أن صاحب الدعوة - صلى الله عليه وسلم - لم يُعيِّن مَن سيكون والياً لأمر المسلمين بعد وفاته . وإن كانت بعض التصرفات النبوية ترشح أبا بكر لهذه المسئولية لكن تلميحاً لا تصريحاً . والسبب فى عدم تعيين خليفة هو إتاحة الفرصة للأمة فى أن تختار مَن يتولى أمرها بنفسها ، لأن مسألة الخلافة أو الإمامة العظمى أمر سوف يتجدد طيلة الحياة . وليس معقولاً ولا واقعياً أن يُعيِّن الرسول ولاة الأمر إلى قيام الساعة . وقد مارس المسلمون فى صدر الإسلام طرقاً عدة فى شأن الولاية العظمى ، فكانت تولية أبى بكر عن طريق البيعة العامة مختاراً من بين ثلاثة مرشحين هو وعمر وأبى عبيدة ، وكانت تولية عمر عن طريق العهد من أبى بكر ، ولكنه العهد المشروط برضا الأمة ، ثم كانت تولية عثمان عن طريق الانتخاب من خلال درجتين - فهو أحد الستة الذين رشحهم عمر ، والستة كانوا من الذين توفى صاحب الدعوة وهو عنهم راض .

وقد اكتسبت الأمة خبرات فى نظام الحكم والممارسة المباشرة لشئون الإدارة العليا نجم عنها نظام فريد فى العالم ، وهو أن الأمة هى مصدر السلطات فى التولية والمراقبة لولاتها وعزلهم إذا اقتضى الأمر ، بينما كان يشيع فى العالم إذ ذاك نظم غاشمة منها وراثة الحكم ، وتقديس الحكّام وعائلاتهم ، ومنها أن الحكام لهم حقوق على رعاياهم وليس لرعاياهم عليهم أية حقوق . فجاء النظام الإسلامى وأحدث انقلاباً عظيماً فى نظام الحكم ، ومنه سرت ما تسمى بالنظم الديمقراطية فى العالم المعاصر . أضف إلى ذلك أن مهمة الرسالة والرسول كانت فى إرساء قواعد المنهج وأصوله المتمثلة فى كتاب الله وسُنّة رسوله . أما اختيار القادة والولاة فهو من شأن الأمة .

هذا هو الواقع . ولكن بِمَ فسَّر المستشرقون هذا العمل ، أعنى عدم النص من النبى على مَن يكون خليفة له ؟

يقول المستشرق « كازانوفا » - وهو من أصل يهودى - إن محمداً ( ﷺ ) لم يعيِّن خليفة له ، لأنه كان يعتقد أن القيامة ستقوم فى حياته أو بعد موته مباشرة ؟!

ذكر هذا الكلام المضحك الذى لا يمكن صدور مثله عن عاقل فى كتاب له يُسمى « محمد ونهاية العالَم » وقد جاراه فيه بصورة أخف المستشرق « بلاشير » فى كتابه « القرآن » حيث يقول : إن خيالاً ظل ملازماً للنبى الجديد بأن الكارثة التى ستقضى على العالَم ستكون قريبة ، دون أن يحدد الوقت الذى ستقع تلك الكارثة فيه ؟!

ويمضى « كازانوفا » فيقول : إن أصحاب النبى كانوا مثله فى ذلك الاعتقاد ولذلك أحسوا بالحَرَج لما توفى النبى ولم تقع الساعة ، فكان لا بد من البحث عن مخرج من ذلك الحَرَج ؟!

ويتطوع « كازانوفا » بوهمه المريض الحاقد فيقول : إن ذلك المخرَج كان فى اضطرار أبى بكر إلى اختراع آيتين وإضافتهما إلى القرآن إحداهما : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ من قَبْله الرُّسُلُ ، أَفَإِيْن مَّاتَ أَو قُتلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١) ، والثانية : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ (٢) .

ولكن كيف استدل « كازانوفا » على هذا الزعم والافتراء ؟ ومن أين فهم أن الرسول كان يعتقد قيام الساعة فى حياته ؟! إذا عرفت دليله ظهر لك إما جهله الفاضح . وإما حقده وافتراؤه المكشوف على الرسالة والرسول . إن دليله هو قوله تعالى مخاطباً خاتم الرسل : ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ اليَقِينُ ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ (٢) الزمر : ٣٠ - ٣١ (٣) الحجر : ٩٩

هذه الآية ليس فيها من قريب أو بعيد أى دليل لـ « كازانوفا » وأتباعه فقد فهم أن « اليقين » فى الآية المراد منه « القيامة » وهذا هو الجهل فى أجلى صوره ؛ لأن المراد من « اليقين » فيها : « الموت » . أى دُمْ على عبادة ربك حتى يوافيك أجلك .

والقيامة وُصفت فى القرآن بأوصاف كثيرة واضحة الدلالة عليها ، مثل : الطامة - الصاخة - القارعة - الآزفة - الساعة - الحساب - البعث - الخروج - الحاقة - الواقعة - أمر الله - النفخ فى الصور .. ولم توصف ولا سميت بـ « اليقين » . فمن أين فهم « كازانوفا » أن المراد منه الساعة يا ترى ؟!

وفى القرآن الحكيم مواضع عدة تفيد - صراحة - أن علم الساعة عند الله وحده لم يطلع عليه أحداً ، لا مَلَكاً مقرَّباً ولا نبياً مرسلاً ، والقرآن كما تقول أم المؤمنين عائشة : كان هو خُلُق رسول الله ﷺ ، وإنا لنتساءل : لماذا تجاهل « كازانوفا » ومشايعيه قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ﴾ (١) .. أى لا تعلم متى تكون .

وقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ، لاَ تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (٢) .

والقيامة غيب ، بل هى من أغيب الغيوب ، وصاحب الدعوة يقول كما أمره ربه : ﴿ .. لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ ، وَلاَ أَعْلَمُ الغَيْبَ .. ﴾ (٣) .

وفى الحديث الصحيح حين جاء جبريل النبى ﷺ فى صورة رجل يسأله عن أمور كان منها : أخبرنى متى الساعة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » يعنى أن كلاً من جبريل والرسول لا يعلم من أمر الساعة شيئاً .

---

(١) النازعات : ٤٢ - ٤٣ (٢) الأعراف : ١٨٧ (٣) الأنعام : ٥٠

صحيح أن القرآن أفصح أكثر من مرة أن الساعة ستكون قريباً كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيداً * وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (٢) . ولكن هذا القرب بالنسبة لعلم الله وحده لا يشركه أحد فيه .

هذا هو الحق الذى عمى عنه « كازانوفا » أو تعامى كما عمى أو تعامى أسلافه الذين مسخهم الله قردة وخنازير .

أما افتراؤه على أبى بكر بتحريف القرآن - ومعاذ الله من ذلك - فإن « كازانوفا » يهودى وأسلافه حرّفوا التوراة وخانوا أمانة الوحى عمداً فظن أن كل المؤمنين وورثة الرسالات قد يصنعون مثل ما صنع أسلافه الملعونون على لسان داود وعيسى عليهما السلام .

* *

● الهدف :

إن الهدف الذى أراده « كازانوفا » من وراء هذا العبث هو أن يوهم الأغمار من الناس ، وأن يشيع بين شعوب الغرب والشرق أن القرآن محرّف ، وفيه ما فيه من صنع البَشر ، وأن يرمى السَلَف الصالح من المسلمين بالخيانة والتزوير ؟! وهيهات هيهات لما يدّعى . فباطله وباطل أمثاله من أعداء الإسلام - مبشرين ومستشرقين وملحدين - أشبه ما يكون بكرة من الثلج تنمو ليلاً وتحت درجة الصفر من البرودة فإذا أشرقت الشمس ذابت تلك الكرة تحت أشعتها ، وتبخرت وذهبت أدراج الرياح .

* * *

(١) الشورى : ١٧ (٢) المعارج : ٧ - ٨

# أُميَّة صاحب الدعوة .. صلى اللّه عليه وسلم

فى ختام تصدينا لافتراءات المستشرقين آثرنا أن يكون مسك الختام الحديث عن أُميَّة صاحب الدعوة صلى اللّه عليه وسلم . وتجدر الإشارة إلى أن المستشرقين لهم موقفان متضادان من أُميَّة النبى عليه الصلاة والسلام : فمرة يقولون إنها أُميَّة مكذوبة ادَّعاها المسلمون لإثبات إعجاز القرآن ، وأنه - صلى اللّه عليه وسلم - لم يكن أُميّاً ، بل كان يقرأ ويكتب ؟!

ومرة يقولون : إنها أُميَّة حقيقية . ثم يرتبون على ذلك مدخلاً للطعن والقدح فى صاحب هذه الأُميَّة ، مستثمرين فى هذا المجال أن طبيعة هذا العصر تصم الأمى بالجهل والتخلف . فكفى ذماً لرجل أن تصفه بأنه جاهل لا يقرأ ولا يكتب ، ومعنى هذا أن المستشرقين يثبتون الشئ ونقيضه فى وقت واحد وهم يتحدثون عن الإسلام . ما دام فى إثبات الشئ ونقيضه ما يحقق لهم الوثوب على الإسلام والإساءة إليه . والأمر المؤسف حقاً أنهم استطاعوا أن يؤثروا على بعض المثقفين من المسلمين . فراح هؤلاء المثقفون يجتهدون فى نفى الأُميَّة عنه عليه الصلاة والسلام ، ونيَّة هؤلاء المثقفين حسنة ولكنهم مخطئون فى موقفهم هذا ؟

* *

● أُميَّة ثابتة بالكتاب والسُنَّة :

وفى البداية نسارع فنقول : إن أُميَّة النبى ﷺ ، بل وأُميَّة قومه حين المبعث وقبله ، أُميَّة حقيقية ثابتة بالكتاب والسُنَّة . فمن نصوص الكتاب فى أُميَّة الرسول قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ﴾ (١) .

وأما أُميَّة قومه فمما جاء فيها فى الذكر الحكيم : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ ﴾ (٢) .

---

(١) العنكبوت : ٤٨ (٢) الجمعة : ٢

وفى الحديث الصحيح : « نحن أمة أميّة لا نكتب ولا نحسب » .

وفى القرآن نصوص أخرى تقرر هذه الأميّة . فلا مناص من الإقرار بها ، ومن يجارى المستشرقين فى شقى دعواهم - وإن كان حسن النيّة - فهو حائد عن الصواب . فالأميّة أميّة حقيقية لا كما يدّعى المستشرقون فى شق دعواهم الأول أنها أميّة غير حقيقية بل مدّعاة ، وثبوت هذه الأميّة لصاحب الدعوة سمة من سمات الفضل ورفعة الشأن ، لا كما يدّعى المستشرقون أنها من سمات النقص والانحطاط . والمسألة فى حاجة إلى التبصر وعمق النظر وعدم الانسياق وراء الأوهام .

* *

## ● ليست مدّعاة من أجل الإعجاز :

سبق لنا فى هذه المواجهة أن أثبتنا بالدليل القاطع أن إعجاز القرآن ليس فى حاجة إلى أى اعتبار من خارج القرآن . بل هو إعجاز ذاتى قائم بذات القرآن ، وكامن فى نظمه وبيانه ، ولا شئ من الإعجاز متوقف على أمر خارج دائرة القرآن نفسه ، فهو معجز بذاته سواء أكان صاحب الدعوة أميّاً كما هو الحق والصواب ، أو كان قارئاً كاتباً على فرض ثبوت القراءة والكتابة له صلى الله عليه وسلم . وهو فرض مستحيل الوقوع لورود الأدلة القاطعة على نفيه . وهى أدلة مستقاة من الكتاب والسُنّة كما تقدّم ، ثم من وقائع التاريخ لتلك الفترة التى نزل فيها القرآن .

* *

## ● الحكمة فى هذه الأميّة :

قلنا إن إعجاز القرآن صفة ذاتية للقرآن نفسه ، ولن يؤثر فيها أى ظرف خارجى . فهو معجز فى كل حال . أما الحكمة من أميّة النبى ﷺ فتتجلى فى اعتبارين :

الأول : قطع أسباب الريب عن قصار النظر من ضعاف الإدراك ومن هواة الباطل . إذ لو كان النبى يقرأ ويكتب لوجد الشيطان مدخلاً إلى عقول بعض الناس بأن القرآن صنعة محمد ﷺ ومن تأليفه ، ولوجد خصوم الدعوة سلاحاً شديد التأثير على ضعاف البصيرة . وسداً لهذه الذرائع ، وحسماً لوساوس شياطين الجن والإنس أرادت حكمة الحكيم أن يكون صاحب الدعوة أميّاً .

الثانى : أن الله عَزَّ وجَلَّ لم يرض أن يكون من البَشر معلّماً أو أستاذاً لصاحب الدعوة صلى الله عليه وسلم . ولذلك لم يجلس محمد ﷺ من أحد مجلس التلميذ من الأستاذ أو المتعلم من المعلم . بل كان معلمه واحد فى الوجود هو الله تعالى ، وقد أشار القرآن إلى هذا الفضل فى قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ، وكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ (١) ، هذا الخطاب السامى الجليل لم يخاطب الله به أحداً من عباده سوى خاتم الرسل صلى الله عليه وسلم .

ولا يقدح فى هذه الحقيقة أن خديجة رضى الله عنها فى بدء الوحى استصبحت النبى ﷺ إلى ورقة بن نوفل الكاهن المعروف لأن هذا كان من باب الاستطلاع والمشورة لا من باب جلوس تلميذ أمام أستاذ .

وكم كانت - يا ترى - مدة هذه الزيارة ؟ نصف ساعة أو ساعة مثلاً ؟ وهل تكفى هذه المدة - نصف ساعة أو ساعة - لأن يكون « ورقة » أستاذاً لمحمد ، ومحمد تلميذاً له .

والمحفوظ عن تلك الزيارة أن « ورقة » شهد شهادة قاطعة - بما له من خبرة عن وحى الله - أن ما تلقاه محمد ﷺ فى غار حراء هو كلام الله من مثل ما كان ينزل على الرسل من قبل . ثم انتهت المقابلة عند هذا الحد .

---

(١) النساء : ١١٣

أما دلالة التاريخ على أميَّة النبى وقومه فمما لا يُقبل فيها جدل ، فقد تواترت بها الرواية ولم يطعن فى ثبوتها أحد جيلاً بعد جيل ، إلا فى هذا العصر الذى تخرَّج فيه بعض المثقفين من المسلمين مما رتبه المستشرقون على أميَّة النبى ﷺ من قوادح ومذام ، وقد عاضد هذا الموقف ما يوصم به الأميون من جهل ، ولوجود الفوارق الهائلة بين رجل يجيد القراءة والكتابة وبين رجل آخر لايفرِّق بين الألف وكوز الذُرَة - كما يقال .

وأميَّة العرب فى عصر المبعث وقبله لم تكن أميَّة مائة بالمائة ، بل كان فيهم منَ يقرأ ويكتب ، ولكنهم نسبة ضئيلة ، بينما السواد الأعظم منهم كانوا أميِّين لا قارئين ولا كاتبين ، ولذلك كان اليهود يسمون العرب أميِّين ويهدرون حقوقهم كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ ﴾ (١) أى يفعلون معهم ما شاءوا من غدر وانتهاك حقوق .

وكلمة « أمىٌ » ترجع فى أصل اشتقاقها إلى « الأم » ، أى إلى الحالة الأولى التى وُلِدَ عليها الطفل . والطفل حتى الآن يولد جاهلاً بكل شئ . وبخاصة القراءة والكتابة ، لأنها من الأمور التى يكتسبها الإنسان بالتعلم فى مراحل حياته اللاحقة للطفولة المبكرة ، فالياء فى « أمىٌ » للنسب وليست للإضافة .

* *

## ● الحكمة فى أميَّة قوم النبى :

أشرنا - قبل - إلى طرف من الحكمة فى أميَّة النبى ﷺ . أما الحكمة فى أميَّة قومه - وهم البيئة التى نشأ فيها النبى - فزيادة حسم وإعدام لوساوس شياطين الجن والإنس التى تزعم أن لمحمد ﷺ معلِّم من البَشر ، إذ كيف يكون لهذا المعلِّم وجود فى بيئة أُميَّةٌ ، ولقلة القارئين والكاتبين فيها لو كان النبى يتردد على واحد منهم ، أو كان واحد منهم يتردد عليه ، لما خفى الأمر على أحد من خصوم الدعوة ، ولتمسك بذلك كفار قريش وأثبتوه بكل قوة .

---

(١) آل عمران : ٧٥

ولذلك لما احتاجوا إلى أن يُدعوا هذه الدعوى لم يجدوا عربياً واحداً من قومه يصلح أن يكون معلماً له ، فنسبوا تعليمه لرجل أعجمى ليس عربياً ، وحكى القرآن عنهم هذا الزعم ثم أبطله بدليل أقطع من السيوف البواتر .

قال فى عرض دعواهم : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ ﴾ (١) .

وقال فى إبطال ونسف هذه الدعوى : ﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٢) .

وفحوى دليل الإبطال : كيف يتعلم رجل لا يعرف لغة معلمه ولا معلمه يعرف لغته ؟! دليل قاطع مفحم كما ترى .

* *

● الحكمة من أُميِّته - صلى الله عليه وسلم - وأُميَّة قومه :

أشرنا فيما مضى إلى الحكمة من أُميِّته عليه السلام ، وإلى الحكمة من أُميَّة قومه كلٍ على انفراد .

ونريد هنا أن نشير إلى الحكمة من الأُميِّتين معاً فى إطار واحد :

وخلاصة ما هدانا إليه النظر أن الله تعالى إقتضت حكمته البالغة ألا يُنْسب تعليم النبى وتعليم قومه إلى أحد سواه . فهو - وحده - معلمها .

وبفضل هذا التعليم الرفيع الشأن ملأ صاحب الدعوة ربوع الكون نوراً وهدىً . وبفضل هذا التعليم المبارك تحوّل العرب - قومه - من أمة خاملة إلى أمّة رائدة قادت البَشرية جمعاء من الظلمات إلى النور . وكانت خير أُمة أُخرجت للناس : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٣) .

---

(١) النحل : ١٠٣ (٢) النحل : ١٠٣ (٣) آل عمران : ١١٠

اللّه علّم رسوله ، ورسوله علّم أمته .. فاتصلت الأمة بحبل اللّه المتين ، وولدت من العدم فى مجالات القيادة والريادة الراشدة . وكفى بذلك معجزة للرسالة وصاحبها . وقد صدق البوصيرى إذ يقول مخاطباً إمام المرسلين وسيد الهداة :

أخوك عيسى دعا ميتاً فقام له  وأنت أحييتَ أقواماً من الرمم

أمة خرجت من الصحراء فرادت العالَم بحواضره العملاقة ، وكهوفه وقراه ، إنه لمعجزة خالدة للإسلام صنعها فى أقل من ربع قرن من الزمان كان مَنْ ولد من البَشر مع مولد الإسلام شباباً فى سن المراهقة أو قريبى عهد بالمراهقة . والأمم لا تبنى وتزدهر فى مثل هذا الزمن القصير إلا إذا كان البانى مَن له ملكوت السمٰوات والأرض . وبيده - وحده - مقاليد الأمور .

* *

## ● القراءة والكتابة وسائل لا غايات :

يتعلم الناس القراءة والكتابة باعتبارهما وسيلة من وسائل تحصيل العلم الموروث . أى المعارف التى لها وجود سابق ، وسطرت فى الكتب ، وبخاصة التاريخ النبوى من لدن آدم حتى عيسى عليه السلام ، هذا ما كان له وزن فى معارف العصور القديمة .

ومحمد ﷺ وقومه لم يكونا فى حاجة إلى تحصيل ذلك العلم ، والتاريخ النبوى كان وقتذاك قد أصابه كثير من التحريف والتبديل . فلم يكن تحصيله على علاّته التى أشرنا إليها مجدياً شيئاً بالنسبة لصاحب الرسالة وقومه . لذلك لم تكن معرفة القراءة والكتابة - بالنسبة لهما - أمراً ذا خطر ، لأن اللّه قد ادخر للأمة ولصاحب الدعوة وسيلة أخرى لتحصيل علم آخر ، تلك الوسيلة الأخرى هى الوحى ، وذلك العلم الآخر هو الحقائق الناصعة التى جاء بها الوحى. وبعد رسوخ ذلك العلم شاعت القراءة والكتابة بين العرب قدم النبى لتحصيل ذلك العلم الجديد وحفظه وتبليغه وتدوينه للأجيال اللاحقة إلى يوم القيامة ،

فحرمان الأمة - ومعها رسولها - قبيل الإسلام من معرفة القراءة والكتابة لم يكن عاراً ولا جهلاً ، ولم يعقدها - فيما بعد - أن رائدة الأمم شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً فى العلم الصحيح ، والمعرفة الناهضة ، والوسائل لا تَشْرُف إلا بسمو غاياتها وهذا ما أكسب وسيلة القراءة والكتابة شرفاً لا يضارع فى ظل الإسلام حيث صارت أداة لخدمة الوحى وتسجيل حقائقه بكل أمانة وإخلاص ، وفقه وبصيرة .

لقد تفرَّد اللّه بتعليم رسوله محمد ﷺ وتأديبه وتربيته ، وتفرد رسوله بتعليم أمته وتأديبها وتربيتها . ونشأت هذه الأمة الأميَّة على روح القرآن فطبقت ذكراها الآفاق . وتغيَّر وجه التاريخ الإنسانى . أمة صنعها فلم يكن لأمم الحضارة عليها فضل من أستاذية أو توجيه . فجاءت هذه الأمة حرة من قيود الأرض ، مهتدية بنور السماء ، تصرف أمرها على هدىً من كتاب اللّه العزيز وسُنَّة رسوله الخاتم . وأشار القرآن العظيم إلى أثر روح القرآن فى تربية الرسول وأمته التى لبتْ نداء ربها : ﴿ وكَذَلكَ أَوْحَيْنَا إلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِى مَا الكِتَابُ وَلاَ الإيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِى به مَن نَّشَاءُ منْ عبَادنَا ، وَإنَّكَ لَتَهْدِى إلَىٰ صرَاطٍ مُّسْتَقيمٍ * صرَاطِ اللّه الَّذى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَات وَمَا فِى الأَرْضِ ، أَلاَ إلَى اللّه تَصيرُ الأُمُورُ ﴾ (١) .

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إلَيْكُمْ كتَاباً فيه ذكْرُكُمْ ، أَفَلاَ تَعْقلُونَ ﴾ (٢) .

فيه ذكركم : أى شرفكم على الأمم - هكذا قال المفسرون .

﴿ فَاسْتَمْسكْ بالَّذى أُوحىَ إلَيْكَ ، إنَّكَ عَلَىٰ صرَاطٍ مُّسْتَقيمٍ * وَإنَّهُ لَذكْرٌ لَّكَ وَلقَوْمكَ ، وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ ﴾ (٣) .

أى شرف لك ولقومك .

* *

(١) الشورى : ٥٢ - ٥٣ (٢) الأنبياء : ١٠ (٣) الزخرف : ٤٣ - ٤٤

● ما أغنت عنهم من شئ :

وهل سأل المتحرجون من وصف النبى ﷺ وقومه بالأميَّة . هل سألوا أنفسهم ماذا أغنت معرفة القراءة والكتابة عن الأمم التى كانت تجيدها قبل الإسلام وبعده . إن الفُرس والروم معدودتان فى أمم الحضارة القديمة وكانتا تجيدان القراءة والكتابة حين كانت الأمة العربية أمة أُميَّة ، ومع هذا كانت دولتا الفُرس والروم غارقتين فى الجهل والجهالة .. سادرتين فى الضلال . فما أغنت عنهم معرفتهم من شئ . والمثال نفسه صالح الآن ليشمل أمماً وشعوباً معاصرة تقدمت ثقافتها مجرد القراءة والكتابة إلى ميادين فسيحة من العلوم والمعارف والاختراعات . ومع هذا فهى أمم لا وزن لها فى ميزان الحق ، وكثير منها أحلّتْ العلم محل الإيمان بالله . وأصابها فقر فظيع فى مجال الأخلاق والفضائل النفسية . أما تلك الأمة الأميَّة ، ورسولها الأمى فقد واجهت العالم كله بحضارة لم يعرف لها مثيل ، ولن يعرف لها مثيل ، وقطعت أشواطاً مديدة من الزمن دون أن ينال منها قدَم ، أو تقف صدقها وسحرها حداثة . وكل يوم يمر يكشف من الإسلام معجزات ومعجزات فى شتَّى مجالات العلوم والمعارف : ﴿ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ ﴾ (١) .

* *

● لسنا معهم :

أما ذلك الفريق من مثقفى المسلمين الذين انصاعوا لمقولات المستشرقين فراحت طائفة منهم تروِّج ما قالوا ضد نبى الإسلام ، وتزعم أن لا النبى كان أُميّاً بمعنى لا يقرأ أو لا يكتب ، ولا قومه كانوا أُميِّين يجهلون القراءة والكتابة ، سواء أكانوا حسنى النية أو سيئيها فقد أخطأوا خطأً فاحشاً ؛ لأنهم - بفعلهم

---

(١) التوبة : ٣٢

هذا - يهدرون قيمة الأخبار الصادقة الواردة فى القرآن أصدق الحديث ، والواردة عن صاحب الدعوة الصادق المصدوق .

ونحن لسنا معهم - ولن نكون - ولن نتحرّج كما تحرّجوا من وصف النبى ﷺ وقومه بالأميّة . فهى أميّة شرف ورفعة - كما بيّنا - وليست أميّة جهل وتخلف وانحطاط .

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِى أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١) .

البلد الطيب الأمين .. مكة المكرمة .

فى ليلة الخميس ٢٤ من شعبان سنة ١٤١٢ هـ (٢٧ من فبراير سنة ١٩٩٢ م ) .

والحمد لله فى الأولى والآخرة .

عبد العظيم بن إبراهيم بن محمد المطعنى

* * *

(١) الأعراف : ١٥٧